العرب ودراسة تاريخهم

بقلم الدكتور نبيه امين فارس

— ١ —

عندما سئلت (١) ان أبحث قضية « تنمية اهتمام الشباب العرب بتاريخهم » كان اول شيء تبادر الى خاطري ان هذا السؤال ، بصيغته الحالية ، غير صحيح ، ولا يتفق مع واقع الحال . ولم يكن هذا الذي تبادر الى خاطري ابن ساعته وإنما هو وليد تفكير جدي ، طويل ، في جميع نواحي هذه القضية . فالمسلمون ، عموماً ، مهتمون بتاريخهم اعظم الاهتمام ، معنيون به كل العناية ، وهم يحيون تاريخهم هذا ، ويعيشون حوادثه ، كانها حوادث الامس القريب .

وسبب هذه الحالة الغريبة ان التاريخ الاسلامي (٢) مرتبط بالدين الاسلامي ارتباطاً وثيقاً . والاسلام حي بآثاره المتخلفة عن عهود ماضيه المشرقة ، وبشعائره التي يمارسها المسلمون . ولا بد للشاب المسلم من ان يلم بشيء من التاريخ الاسلامي عن طريق الدراسة الاولية التي قد تتاح له ؛ وعن طريق الوعاظ والمرشدين من رجال الدين ، وعن طريق الاحتفالات التقليدية بذكرى المولد النبوي ، وعاشوراء ، وسواهما من المناسبات الدينية ؛ وعن طريق هذا القصص الشعبي الذي يغرم به العامة ، والذي يتصل بالتاريخ العربي القديم من قريب او من بعيد ، وعن طريق الأدب العربي القديم الذي يقبل عليه العامة والخاصة بشغف عظيم . لقد كاد اهتمام العرب بتاريخهم القديم ، وانصرافهم الى التفكير في الماضي ، ان يكون حالة مرضية . (٣)

وتعنى المدارس الابتدائية ، والثانوية ، والعالية ، بالتاريخ الاسلامي عناية بالغة . وقد اقبل كثير من الكتاب العرب المعاصرين على التاريخ العربي يؤلفون فيه الكتب ، وينشرون سير ابطاله ومشاهير رجاله ، بحيث اصبحت الكتابة في التاريخ الاسلامي منبعاً ثراً للرزق ، ووسيلة لكسب الشعبية والشهرة والجاه العريض بين جمهور القراء . ان معظم الكتاب المعاصرين «الكبار» يعيشون على مائدة التاريخ الاسلامي الدسمة الغنية . الف طه حسين « على هامش السيرة » في ثلاثة اجزاء (الطبعة الاولى، القاهرة، ١٩٣٣) ، والف « الفتنة الكبرى » في ثلاثة اجزاء ظهر منها « عثمان » (القاهرة ، ١٩٤٧) ، و (علي وبنوه (القاهرة ، ١٩٥٣) والف عباس محمود العقاد « عبقرية محمد » (القاهرة ، ١٩٤٢) ، و « عبقرية الصديق » (القاهرة ، ١٩٤٣) ، و « عبقرية عمر » (القاهرة، ١٩٤٢)، و«عبقرية الامام» (القاهرة، ١٩٤٣) و « الصديقة بنت الصديق » (القاهرة ، ١٩٤٢) ، و « سيد الشهداء » (الطبعة الثانية ، القاهرة ؟) ، و«عبقرية خالد» (القاهرة ؟) و « اثر العرب في الحضارة الاوربية » (القاهرة ، ١٩٤٦) ، و « الديموقراطية في الاسلام » (القاهرة ، ١٩٥٢) ، و « عمرو بن العاص » (القاهرة ؟) . بحيث اصبح العقاد يدعى ، تهكماً ، [العبقري ، كاتب العبقريات] . وتحول الدكتور محمد حسين هيكل من ابحاثه في الادب والفكر الاوربي الى الكتابة في التاريخ الاسلامي فكتب « محمد » (اعيد طبعه عدة مرات) ، و «الصديق ابو بكر » (القاهرة، ١٩٤٢) ، و « الفاروق عمر بن الخطاب » (جزءآن في مجلد واحد ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ) ، و « في منزل الوحي » (القاهرة ، ١٣٥٦ هـ). وحتى الكاتب المسرحي توفيق الحكيم مال الى المشاركة في التاريخ الاسلامي فكتب مسرحية « محمد » (القاهرة ، ١٩٣٦) ، و « تاريخ حياة معدة » (القاهرة ، ١٩٣٨) المستمد من حكايات التاريخ العربي ونوادره . وكتب مصطفى صادق الرافعي الكتب والمقالات والقصص في شرح هذا التاريخ، وبيان رموزه ، والكشف عن روحه . وقد اقبلت دور النشر ، التي تنشر سلاسل دورية من الكتب الشهرية الرخيصة الثمن ، على هذه المؤلفات ، تعيد نشرها ، وتروج لها بين عامة القراء ، بحيث نجد كثيراً من المؤلفات التي صدرت في سلسلة «الهلال» الشهرية ، وسلسلة « إقرأ » تدور حول حوادث التاريخ الاسلامي ، او الادب العربي القديم .

وقد أدت الحركات الاسلامية الحديثة . لا سيما السياسية منها ، الى زيادة الاهتمام بالتاريخ الاسلامي . فالمؤلفات في التاريخ الاسلامي من امهات المصادر، الى الكتب الحديثة البسيطة ، تملأ المكتبات . والمجلات الادبية والدينية ، التي تعنى بشؤون التاريخ الاسلامي ، والدين الاسلامي ، اكثر من ان تحصى .

— ٢ —

على ان هذا الاهتمام بالتاريخ الاسلامي ، وهذا الاقبال الشديد عليه من قبل ناشئة العرب والمسلمين ، لا يغنيان شيئاً ، فالمؤلفات الحديثة في التاريخ العربي ، بصورة عامة ، تبحث في هذا التاريخ بحثاً اقرب الى السطحية منه الى الدراسة العلمية المتعمقة ، التي تميز بين الحقائق والاساطير ، وتبحث عن الاسباب، وتعلل النتائج . هذه المؤلفات تستثير حماسة القراء، وتبعث في نفوسهم الغرور بدلاً من ان تنير عقولهم ، وتثقفهم بالثقافة التاريخية الصحيحة . ان الثقافة المستنيرة التي يتوقعها

« إن الحكام الذين لم يستمدوا سلطانهم من رضى الشعب وموافقته ، وإنما يحكمون بأمرهم حكماً عشائرياً مستبداً ، ورجال الدين الذين نشأوا في الجهل ، وعاشوا في أجواء التعصب، وتجار السياسة والمال والعلم والدين، والدول الاجنبية ذات المصلحة الثابتة في هذه البلاد، كل اولئك يخشون البحث العلمي وكشف الستار عن الحقائق الواقعة ، وتنوير أذهان عامة الشعب » .

(١) محاضرة ألقيت في مؤتمر برنستون .

(٢) يدور هذا البحث، بصورة رئيسية ، حول التاريخ العربي والاسلامي المدون باللغة العربية .

(٣) انظر نبيه امين فارس ومحمد توفيق حسين ، هذا العالم العربي (بيروت ، ١٩٥٣) ص٤١ — ٤٦ .

المرء من دراسة موضوع انساني كالتاريخ معدومة في هذه المؤلفات . ان كتاباً مثل « تاريخ الامة العربية » لدرويش المقدادي (بغداد ، ١٩٣١) ، الذي اعتمدته المدارس الثانوية في سورية وفلسطين والعراق سنوات عديدة والذي تتلمذت عليه اجيال عديدة من الشباب العرب، لا يمكن ان يعتبر مؤلفاً علمياً في التاريخ ، بل الاجدر اعتباره خطبة حماسية . [١]

ومن اسباب ضعف هذه المؤلفات التاريخية انها تشير الى مآتي العرب، وتذكر امجادهم العلمية والفلسفية ، اشارة غامضة ، عابرة ، مقتصرة على تعديد الاسماء ، وذكر النظريات ، وسرد المؤلفات العربية التي ترجمت الى اللغات الاوربية ، والاشارة الى اعلام الباحثين الغربيين الذين تأثروا بها ، والمستشرقين الذين مدحوها واثنوا عليها ، دون التركيز المفصل على حقيقة الانتاج العربي ذاتـــه في العلم والفلسفة والحضارة عامة . ومن اسبابها تخوّف الباحثين العرب من القيام بدراسة علمية رصينة للحضارة العربية تحدها ، وتفسرها ، وتحللها ، وتعللها ، وتكشف عن حقيقة جوهرها ، وتضعها في موضعها الحق من التاريخ الانساني العام. على ان هذه العبارة تحتاج الى شيء من الايضاح والتبسيط .

لا بد لكل دراسة علمية للتاريخ الاسلامي من ان تتعرض للدين الاسلامي ، لما بين هذا التاريخ وبين الاسلام من ارتباط عضوي متين . وكل دراسة علمية للدين لا بد لها من ان تعامله معاملة الظواهر الطبيعية والاجتماعية ، يعني ان تضع الجانب الالهي منه موضع البحث الواقعي ، اي تبحثه كما تبحث اية حقيقة اجتماعية او فكرية او وجدانية . وهذا النوع من الدراسة لا يلقى اقبالاً عـــند جمهور المشتغلين بالتاريخ الاسلامي من مؤلفين او مدرسين ، إما خوفاً على ايمانهم من عواصف الشك ، او حرصاً على ايمان العامة ، او تجنباً لنقمة العامة ومن يوجهها من رجال الدين .

والعـالم العربي والاسلامي يمر في اخطر مرحلة من مراحل حياته . انه ينتقل من القرون الوسطى الى العصر الحديث . من القرون الوسطى بما فيها من قيم تنهض على الخلاص الفردي ، واعتبار الحياة على هـــذه الارض معبراً الى الحياة الاخرى الخالدة الباقية ، وتفسير الحقائق الاجتماعية والتاريخية تفسيراً الهياً غيبيا . وبما فيها كذلك من حياة اجتماعية تقوم على تقسيم المجتمع الى طبقات متفاوتة الحظوظ من الثروة ، وفصل عالم الرجل عن عالم المرأة ، وقطع عالم الاطفال عن عالم الكبار . وبما فيها الى كل هذا من حياة اقتصادية تقوم على الزراعة ، وعلى عمل الانسان ، والمهن اليدوية البسيطة . ان العـــالم العربي والاسلامي ينتقل من هذه كلها الى العصر الحديث الذي يعتبر الانسان ، رجلاً وامرأة ، مصدر القيم ، ويعتبر حياته على هذه الارض جديرة بان تحيا سعيدة ، ويؤمن بالخلاص الجماعي ، ويعتمد العلم في اغناء الحياة من الناحية المادية ، وفي تفسير ظواهر الطبيعة والمجتمع ، ويجعل المجتمع يقوم على الآلة بدلاً من ان يقوم على عمل الانسان وحده ، ويحلّ رابطة القومية والوطن محل رابطة الملة والطائفة والدين .

ومن هنا ، في نظرنا ، تنبعث محنة التاريخ العربي والحضارة العربيـة . فان جمهرة الشبان المسلمين والعرب المتعلمين تعلماً عصرياً ، ان لم نقل جميعهم، يجدون الحضارة العربية الاسلامية ، بعلومها وفلسفتها وقيمها ومؤسساتها الاجتماعية والاقتصادية ، غير كافيـة لتثقيف عقولهم ، والاجابة عن المسائل العديدة التي تثيرها في نفوسهم مشاكل اوطانهم وشعوبهم ، وافكارهم القلقة ، المتطلعة ، المتسائلة . وكل بحث علمي ، سطحي متسرع ، في هذه الحضارة يقوي انحراف هؤلاء الشبان عن تاريخهم وحضارتهم ، ويكرههم بها ، ويدفعهم دفعاً الى تلمس خلاصهم الروحي ، وثقافة عقولهم ، وسعادتهم الفردية والجماعية ، في هذه الحضارة الغربية التي تبدو لهم عظيمة الغنى ، سخية العطاء .

اذا استثنينا المحاولة الضخمة التي قام بها جورج سارتون [١] نكاد لا نجد في اللغات الاوربية اية دراسة علمية ، عميقة ، وافية ، للحضارة الاسلامية العربية ، تحاول ان تحدد محتواها ، وروحها ، تحديداً دقيقاً ، وتقدر قيمتها وما قدمته للحضارات الاخرى تقديراً عادلاً . وليس في اللغة العربية مثل هذه الدراسة ايضاً . وفضلاً عن ذلك فان ما يوجـــد من الدراسات والابحاث عن الحضارة العربية في اللغات الاجنبية يكاد يجهله جمهور المتكلمين باللغة العربية . وما لم يوجه القراء العرب الى مثل هذه الدراسة العلمية الموضوعية لا يحتمل ان ينجحوا في سعيهم للخروج من المحنة المؤلمة التي يضطربون فيها .

---

(١) ولا يختلف الكتاب الرسمي المدرسي عن تاريخ لبنان (اسد رستم وفؤاد وافرام البستاني ، تاريخ لبنان الموجز) عن هذا الكتاب في شيء . وقل مثل هذا عن مؤلفات محمد عزت دروزة ، والعقاد ، وعمر ابو النصر ، وعمر فرّوخ ، وسواهم .

(١) المدخل الى تاريخ العلم ، ثلاثة اجزاء .

- ٣ -

حالة الدرسات التاريخية في العالم العربي اليوم

لو القينا نظرة ناقدة على الدراسات التاريخية في العالم العربي الاسلامي لوجدناها ما تزال خاضعة لتأثير المؤرخين العرب القدماء ، سائرة على مناهجهم ، مترسمة طريقتهم في البحث ، والمعالجة ، والتفكير . وما زالت نظرة معظم المؤرخين العرب المعاصرين لحوادث التاريخ ، وطريقتهم في معالجتها ، وتأكيدهم على بعضها دون البعض الآخر ، هي هي نظرة المؤرخين القدماء تقريباً . ولا يختلف كثير من كتب التاريخ الحديثة ، كمحاضرات تاريخ الامم الاسلامية للشيخ محمد الخضري ، عن الطبري وابي الفداء الا قليلا ، اذا استثنينا اقحام بعض الملاحظات الاعتذارية هنا ، وحشو بعض المواعظ والارشادات هناك . ويتميز معظم الانتاج الحديث بما يلي :

اولاً : ما يزال اهتمام المؤرخين المعاصرين منحصراً في تاريخ الاسر الحاكمة ، والشخصيات المشهورة من خلفاء وقواد ورجال دين .

ثانياً : وما زالت مادة التاريخ عبارة عن سرد مجرد لمجموعة من الحوادث والتواريخ واسماء الاعلام .

ثالثاً : وما زال المؤرخون يتناولون التاريخ العربي باعتباره فترة من الزمن قائمة بذاتها ، تامة ، منفصلة عن التاريخ الانساني ، تبتدىء بعام الفيل ، او بهذه الفترة الغامضة التي تدعى بالعصر الجاهلي ، وتنتهي بسقوط بغداد عاصمة العباسيين على يد هولاكو في عام ١٢٥٨ في المشرق ، وسقوط غرناطة ، وخروج عبد الله الصغير ، آخر ملوك بني نصر ، لاجئا الى مراكش عام ١٤٩٢ في المغرب . اما الازمان التي سبقت الجاهلية فيحفها الظلام ، او انها ، في الحقيقة لا تستحق اهتمام المؤمنين . ولم يكلف الا القليل من المؤرخين العرب المحدثين انفسهم عناء البحث في هذه الفترة الواقعة بين سقوط بغداد والاحتلال العثماني . وذلك يعود ، بصورة جزئية ، الى الصعوبات التي تعترض سبيل الباحث ، وبصورة اساسية الى هذا الاعتقاد الغامض بان التاريخ العربي الاسلامي قد انتهى امره بسقوط الخلافة .

والمؤرخ الحديث إما ان يسرد التاريخ العربي سرداً يظهر امجاده بالوان ساطعة ، قافزاً الفترات المضطربة فيه ، متجاوزاً عن الاعمال والحوادث المظلمة ، قارئاً فيه كل ما حققته « الليبرالية » الغربية . وقد سميت هذه النزعة ، تسمية موفقة ، بالرومانتيكية الاسلامية . وإما ان يعرضه عرضاً متسرعاً ، سطحياً ، متجلبباً بجلباب العلم ، يظهره مسيخاً فارغاً ، سقيماً حائل اللون ، منفراً للشبان المتعلمين العصريين .

- ٤ -

كيف يجب ان يعلّم هذا التاريخ؟

اولاً : يجب ان ينقل اهتمام الباحثين من سرد الحوادث والتواريخ الى التفسير ، والتحليل ، والتعليل . يجب ان تفرد القضايا الاساسية في التاريخ العربي الاسلامي ، وتفحص ، ويعين موضعها الحق من التاريخ الانساني تعييناً دقيقاً . ويجب ان يتناول بمثل هذه الطريقة من الدراسة والبحث جميع ما حققه العرب في الحضارة والعلم ، « والميزات البارزة التي تميز مختلف ادار تطورها » . ولعل كتاب الاستاذ برنارد لويس (العرب في التاريخ ، لندن ، ١٩٥٠) هو من اصح الامثلة على هذه الطريقة في الدراسة والبحث .

ثانياً : يجب ان يهتم المؤرخ الحديث اهتماماً جدياً ، الى جانب اهتمامه بدراسة الجانب السياسي من التاريخ الاسلامي ، ببحث الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية . وقد لا تعين المصادر التاريخية العربية الباحث في دراسة هذه النواحي اعانة كافية . على ان دراسة ما تركه العرب من ادب تكمل هذا النقص ، وتيسر على الباحث مهمته . والحقيقة انه ليستحيل فصل مصادر التاريخ عن مصادر الادب في اللغة العربية .

ثالثاً : يجب ان يدرس التاريخ الاسلامي على انه جزء غير منفصل من تاريخ البشرية . ولعل هذه القضية اهم نقاط البحث جميعاً ، وعلى هذا يجب ان نتوسع في بحثها قليلاً . ان الباحثين المحدثين لم يعنوا بالحضارة العربية العناية الكافية ، ولم يدرسوها الدراسة التي تستحق . ولم يبذل ، حتى الآن ، اي جهد منظم لدراسة هذه الحضارة دراسة دقيقة ، متقصية ، تبين علاقاتها بالحضارات السابقة والمعاصرة ، وتحدد تأثيرها الاساسي في الحضارات اللاحقة وخاصة الحضارة الغربية . ونحن على يقين ، استناداً الى الدراسات الجزئية التي تمت في الموضوع ، بان مثل هذه الدراسة ستظهر الاثر الخطير الذي كان للحضارة

العربية على الحضارة الغربية ، مهما كان هذا الاثر ضئيلاً . ومثل هذه النتيجة تعيد الثقة الى نفوس ناشئة المسلمين بان الحضارة العربية ، وان انقضى دورها اليوم ، قد كانت حلقة نيرة من حلقات الحضارة البشرية ، التي نستمتع الآن بطور من اطوارها . على ان هذا الأثر لا يتم في عقول هذه الناشئة ما لم يغير الباحثون الغربيون ، الذين يكتبون التاريخ الغربي خاصة والتاريخ الانساني عامة ، موقفهم من الحضارة العربية ، فيعطوا هذه الحضارة حقها عند البحث عن مصادر الحضارة الغربية الحديثة . ان مؤرخاً عظيماً من مؤرخي الفلسفة ، كبرتراند رسل مثلا ، لم يخصص للفلسفة العربية ، والدين الاسلامي والنبي محمد ، اكثر من ست عشرة صفحة متفرقة من صفحات كتابه الكبير (تاريخ الفلسفة الغربية ، الطبعة الثالثة ، لندن ، ١٩٤٨) البالغ عددها ٨١٦ صفحة . وهذا باحث اميركي مشهور يؤلف حديثاً « بحثاً في تفهم العالم » ولا يخصص للعرب والمسلمين غير اثنتي عشرة صفحة من مجموع ٤٩٦ صفحة [١] . قد يكون هذا مقياساً غير دقيق لتقدير الاهمية النسبية لأفكار الناس واعمالهم . ولكن هذا المقياس على ما ينقصه من الدقة ، يعكس لنا اهمال الباحثين الغربيين المعاصرين ما قدمه المسلمون ، وهم سبع الجنس البشري ، في حقل الحضارة والدين .

لم اشر الى المؤلفات العديدة التي كتبتها اجيال متعاقبة من المبشرين . وليس الدافع الى اغفال هذه المؤلفات تقصيراً في التنبه لها ، او رغبة في نكران ما قدمته للدراسات العربية الاسلامية . ولكن معظم هذه المؤلفات لم تكن مجردة عن الغرض ، خالصة النية العلمية . ان هذه الطائفة من المؤلفات كما يقول ه.ا.ر جب بايجاز بليغ [٢] « تصدر عن اولئك الذين يتحكم بتفكيرهم الاعتقاد بان الاسلام دين منحط . قد تكون هذه النظرة جديرة بالاحترام عندما تنشأ عن اعتقاد ديني مخلص . تلك حال معظم مؤلفات المبشرين . وانه لمن الظلم ان نغفل هذا التقدم العظيم الذي حققه المبشرون ، في السنوات الاخيرة ، نحو تفهم الاسلام تفهماً داخلياً مشبعاً بالعطف ، بدلاً من دراسته دراسة خارجية مغرضة ، فجة . ومع ذلك فما تزال الاحكام السابقة ، والآراء المغرضة تلازم موقفهم من الاسلام . وهذا ما يحسن التنبه له عند تقدير كتاباتهم » .

على ان هنالك من الدلائل ما يشير الى ان الباحثين الغربيين قد بدأوا يتلافون هذا النقص . فقد اشار ويل ديورانت ، في كتابه « قصة الفلسفة » اشارة عابرة واحدة الى الاسلام . اما في كتابه الكبير الذي صدر حديثاً عن تاريخ الحضارة فقد عقد للحضارة العربية والاسلامية سبعة فصول كاملة ، استغرقت ١٠٣ صفحة من صفحات الكتاب البالغة ١١٠٠ صفحة . ان عناية الباحثين الغربيين ، بما قدمه العرب والمسلمون للحضارة الانسانية ، عناية حقيقية ، وانصرافهم الى دراستها دراسة اكثر موضوعية لا تظهر في هذه المؤلفات الادبية الرصينة التي ينتجها الغرب فحسب ، ولكنها ظاهرة ايضاً في ازدياد عدد الجامعات والمعاهد العلمية التي تفسح المجال للدراسات الاسلامية ، وفي هذه الاعانات الضخمة التي تهبها المؤسسات العلمية للباحثين في الشؤون الاسلامية . وهي متجلية في هذا المجهود الضخم الذي يبذله هذا المؤتمر . ويجب ان تؤدي هذه المجهودات في حقل البحث المجرد اولاً الى معالجة الحضارة العربية والاسلامية معالجة اكثر عدالة وانصافاً ، والى الحكم على ما قدمته الى الحضارة الانسانية حكماً عادلاً نزيهاً . وأخيراً الى اعادة ثقة المسلمين عامة ، لا سيما الشبان منهم ، بان دينهم وحضارتهم لم يتعرضا ، ولن يكونا عرضة ، لاحكام مبتسرة ، قائمة على التحيز المغرض ، والحقد الاعمى .

— ٥ —

على ان أفضل وسيلة تنمي بها اهتمام الشباب العرب بتاريخهم ، وأقواها تأثيراً ، انما هي ان نجعلهم يهتمون بمشاكل

صدر حديثاً

معجم العراق

للاستاذ عبد الرزاق الهلالي

سجل تاريخي سياسي اقتصادي اجتماعي ثقافي يبحث في مختلف نواحي الحياة العامة في العراق منذ العهد العثماني حتى اليوم

(١) ف. س. ك. نوثورب ، التقاء الشرق والغرب ، نيويورك ١٩٤٧

(٢) المحمدية ، لندن ، ١٩٥٠ .

بلاهم الحاضرة ، ويتفهمونها التفهم الصحيح . وهـذا الفهم للمشاكل الحاضرة يقتضي ، بطبيعة الحال ، تقصي جذور هـذه المشاكل في التاريخ ، ودراسة جميع علاقاتها السابقة . وهـذه القضية تنقلنا الى قضية اخرى خطيرة ، ألمعنا اليها فيما تقـدم إلماعاً ، ولم نبحثها بحثاً وافياً .

ان المؤرخين بصورة عامة والمؤرخين العرب والمسلمين بصورة خاصة ، قد أهملوا دراسة الفترة الممتدة من سقوط بغداد في القرن الثالث عشر الى بداية النهضة القوميـة الحاضرة في أوائل القرن التاسع عشر . اما أسباب إهمال المؤرخين لهـذه الفترة فعديدة . على ان اهمهـا هو انحطاط الحياة الفكرية والسياسية في هذه الفترة ، وتغلب الدول غير العربية على ديار الاسلام ، وصعوبة تتبع المراجع الأجنبية . لقد زالت البلاطات العربية الفخمة ، وانحطت الخلافة بأمجادها الروحية وبهرجهـا الدنيوي ، فظن المؤرخون ، وتبعهم عامة القراء العرب ، بان التاريخ العربي قد توقف ، وان العرب ، كافة ، قد أغفوا فلم يعد لهم حوادث تذكر ، وتاريخ يدون ، وأمجـاد تنشر . ثم ان حالة الناس الوجدانية كانت تدفعهم الى تجاهل هذه الفترة . لقد غلب المسلمون والعرب على أمرهم ، وانحطوا من عليـاء أمجادهم الى واقع فقير ، متأخر ، ضعيف ، فلا غرو ان يهربوا من حقائق واقعهم المؤلمة ويحتموا بذكريات ماضيهم البهيجة ، وان ينصرفوا الى التغني بأمجادهم القديمة . والحق ان هذه الفترة لم تهمل إهمالاً تاماً . فقد أُلفت فيها الكتب ، وإن كانت هذه الكتب لم تخل من جميع الشوائب التي علقت بالمؤلفات التاريخية العربية والاسلامية التي ذكرناها آنفاً . وزيادة على ذلك فان هذه المؤلفات ، بصورة عامة ، إقليمية ، لم تربط موضوع بحثها بالتاريخ العربي العام ، ولم تعالجه كتيار من تياراته ، لتفكك الوحدة السياسية . مثل هذه المؤلفات التي تبحث في تاريخ قطر معين ، « كحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» للسيوطي ، وخطط المقريزي . او أسرة ملكية معينة كتاريخ السلاجقة لعماد الدين الأصفهاني . او مدينة معينـة ، كالدر المنتخب في تاريخ حلب لابن الشحنة ، ان جميع هذه المؤلفات ، مفيدة ، ممتعة ، ولكنها تظهر بجلاء انحلال الوحدة السياسية للعالم العربي والاسلامي ، وفقدان النظرة العامة الموحدة للعرب والمسلمين .

ان دراسة هذه الفترة مهمة جداً ، لأنها ترتبط بحياتنا الحاضرة ارتباطاً عضوياً بحيث لا يمكن فهم اسباب تخلف العرب الحاضر وسوء ما هم عليه من أوضاع ، إلا بتفهم تاريخهم إبان هذه الفترة .

— ٦ —

على ان كل هذه الملاحظات التي ذكرناها لدراسة التاريخ العربي والاسلامي دراسة علمية ، بريئة ، عادلة ، لا يمكن ان تتحقق إلا اذا تحقق الشرط الأول لوجودها . ألا وهو حرية التفكير ، والتعبير ، والنشر ، التي تتيح للباحث ان يبحث ، ويفكر ، وينشر تفكيره على القراء دون ان يلقى عائقاً يحول دون إعلان رأيه ، ودون ان يضطهد في رزقه او منصبه ، او ذات نفسه ، ودون ان يتعرض للسجن ، واحيانـاً للتعذيب الجسدي والروحي . وتعاني حرية الرأي اليوم محنـة قاسية في العالم العربي والاسلامي . فالحكام الذين لم يستمدوا سلطانهم من رضى الشعب ومواقته ، وإنما يحكمون بامرهم حكماً عشائرياً مستبداً ، ورجال الدين الذين نشأوا في الجهـل ، وعاشوا في أجواء التعصب ، وتجار السياسة والمـال والعـلم والدين ، والدول الأجنبية ذات المصلحة الثابتة في هذه البلاد ، كل اولئك يخشون البحث العلمي وكشف الستار عن الحقائق الواقعة ، وتنوير أذهان عامة الشعب .

★

والى جانب حرية التفكير والتعبير والاذاعة يحتاج هـذا التاريخ العربي والاسلامي ، الذي نريد ان يهتم بـه الشبان العرب والمسلمون ويمنحوه ولاءهم المخلص الواعي ، الى معلمين معدين إعداداً حسناً لتدريسه . وإلى باحثين مخلصين في بحثهم متمكنين من الطريقة العلمية . وإلى ناشرين يهمهم العلم الخالص اكثر مما يهمهم تملق الجمهور والسعي وراء الثروة .

نبيه فارس

مكتبات انطوان

باب ادريس — وشارع الامير بشير ، بيروت

فيها أكبر مجموعة من الكتب العربية والفرنسية ، ادبية وسياسية واجتماعية

تلفون ١٦/٧٧